

الإمام الحسن (ع): المثال الأنموذجي للتواضع

التواضع صفة أخلاقية حميدة، وخصلة إنسانية جميلة، لأنه يعبر عن سمو النفس ورفعتها، فالتواضع - كما عرفه علماء الأخلاق - هو اللين مع الخلق، والخضوع للحق، وخفض الجناح.

وبهذا المعنى فإن التواضع يرمز إلى خفض الجناح ولين الجانب وسهولة التعامل مع الآخرين وسرعة التكيف معهم، أما التكبر والغرور والعجب بالنفس فيرمز إلى الصعوبة في التعامل، والحدية في القول والفعل، وعدم الخضوع للحق.

ولا شيء يفسد الأخلاق كالتكبر والغرور والعجب بالنفس، ولا شيء ينمي الأخلاق الحسنة كالقلب الطيب والتواضع والنفس الترابية والعقل الرشيد!

والإنسان المغرور كالمطائر المرتفع كلما حلق في السماء عالياً كلما صغر في أعين الناس والإنسان المتواضع كالمطائر النازل كلما كان أقرب إلى الأرض رآه الناس كبيراً، فيحظى بمحبة الناس وتقديرهم.

وقد حثَّ القرآن الكريم المؤمنين على التواضع، فقد جاء في غير سورة ما يدل عليه، ويشير إليه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خُفِضَ جَنَادُكَ لَإِلْمِؤْمِنِينَ﴾ [11] وقوله تعالى: ﴿وَعِيدَادُ الرَّحْمَنِ السَّادِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ [21] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خُفِضَ جَنَادُكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [31] ، إلى غيرها من الآيات الشريفة التي فيها معنى التواضع ومفرداته.

أما في السنّة المطهّرة فقد رُوِيَ الكثير من الروايات التي تحثُّ على التحلي بصفة التواضع، والتي توضح أيضاً فضيلته وفصله، منها قول رسول الله ﷺ: «لَا حَسَبَ إِلَّا بِتَوَاضُعٍ» [4] ، وقوله ﷺ: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» [5] ، وقوله ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ» [6] ، وقوله ﷺ: «إِنَّ التَّوَاضُعَ يَزِيدُ صَاحِبَهُ رِفْعَةً، فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعَكُمُ اللَّهُ» [7].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «عَلَيْكَ بِالتَّوَاضُعِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ

العِبَادَةِ [8] وورد عن أبي عبد الله عليه السلام قوله: «فِيمَا أَوْحَى إِلَّاهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا دَاوُدُ كَمَا أَنْتَ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْمُتَوَاضِعُونَ، كَذَلِكَ أَبْعَدُ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْمُتَكَبِّرُونَ» [9] ، وعن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «إِنَّ فِي السَّمَاءِ مَلَائِكِينَ مُوَكَّلِينَ بِالْعِبَادِ، فَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَاهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَصَعَاهُ» [10] ، وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْفَعْ الْمُتَوَاضِعِينَ بِقَدْرِ تَوَاضُعِهِمْ، وَلَكِنْ رَفَعَهُمْ بِقَدْرِ عَظَمَتِهِ وَمَجْدِهِ» [11] ... إلى غيرها من الروايات المستفيضة التي تبين أهمية التواضع وفضيلته، فحري بكل مسلم أن يتصف بهذه الصفة الأخلاقية الرفيعة، والتي توصله للفلاح والسعادة في آخرته ودنياه.

قصص من تواضع الإمام الحسن عليه السلام

التواضع سمة بارزة من سمات الأنبياء والأئمة والأولياء، وأعظم العلماء وأكابر الحكماء، وقد سجلت لنا كتب التاريخ والسيرة الكثير من القصص والشواهد والأمثلة على ذلك.

ومن هؤلاء العظماء الكبار: الإمام الحسن بن علي عليه السلام الذي كان مثلاً بارزاً للتواضع ولين الجانب وخفض الجناح للمؤمنين، وقد نقلت لنا كتب السيرة والحديث والتاريخ صوراً مشرقة من تواضعه عليه السلام، نشير إلى بعضها، ومنها:

1- يأكل مع الفقراء على الأرض:

روى ابن شهر آشوب: إنَّه مرَّ الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام على فقراءٍ وقد وضعوا كسيرا على الأرض وهم قعودٌ يلتقطونها ويأكلونها فقالوا له: هَلُمَّ يا بن بنت رسول الله إلى الغداء، قال: فنزَّلَ وقال: إنَّ الله لا يحبُّ المُستكبرين، وجعل يأكل معهم حتَّى اكتفوا والزاد على حاله بيديهم، ثم دعاهم إلى

ضِيَا فَتَاهِ وَ أَطْعَمَهُمْ وَ كَسَاهُمْ [12].

2- ذاك الطعام أشهى من هذا:

روى الخوارزمي بسنده عن مدرك بن راشد، قال: كُنَّا فِي حَيْطَانِ لَابِنِ عِبَّاسِ فَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عليهما السلام فطافا بالبستان فقال الحسن: أَعْنَدَكَ غَدَاءٌ يَا مَدْرِكُ؟

فقلت له: طعام الغلمان، فجئته بخبز وملح جريش وطاقات بقل فأكل، ثم جيء بطعامه وكان كثير الطعام طيبة، فقال:

يا مدرك اجمع غلمان البستان فجمعتهم، فأكلوا ولم يأكل، فقلت له في ذلك، فقال: «ذاك كان عندي أشهى من هذا» [13].

3- يأكل مع الصبيان:

كان من شدة تواضعه: ما ذكره جماعة من العلماء في تصانيفهم أنه مرَّ بصبيان معهم كسر خبز فاستضافوه، فنزل من فرسه فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله وأطعمهم وكساهم، وقال: «اليد لهم، لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني، وأنا نجد أكثر منه» [14].

4- يجالس المساكين:

ذكر الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مَّسْكِينَةٌ وَهُمْ مَسْئُوكُونَ﴾ [15].

قال الثعلبي: «ويروى أن الحسن بن علي عليهما السلام كان يجالس المساكين، ثم يقول: ﴿إِنَّ نَسَهُ لَآ يُحِبُّ الْمُسْئُوكِينَ﴾ [16]» [17].

5- أفتأذن لي بالانصراف؟:

كان الإمام الحسن عليه السلام يهتم بالقيام من مكان جلوسه، إذ دخل عليه رجل فقير، فحياه الإمام وبأسطه في

الكلام، ثم قال له: «جلست إلينا على حين قيام منا، أفتأذن؟» يعني أفتأذن لي بالانصراف؟!!

فأجاب الرجل: «نعم، يا بن رسول الله» [18].

6- إنما وضع الطعام ليؤكل:

من تواضع الإمام الحسن عليه السلام وحسن معاشرته للناس ترحيبه بكل قادم إليه، ودعوته للطعام، فقد روي أنه دخل عليه جماعة، وهو يأكل فسلموا وقعدوا فقال عليه السلام: «هلموا، فإنما وضع الطعام ليؤكل» [19].

وتدل هذه القصة والشواهد وغيرها على شدة تواضع الإمام الحسن عليه السلام، وحسن تعامله مع الفقراء والمساكين، ولين معاشرته معهم، وخفض الجناح لهم، فرغم مكانته الرفيعة، وشخصيته العظيمة، وموقعيته في تاريخ الإسلام إلا أنه كان شديد التواضع، واسع الحلم، ينبوع الكرم والجود.

وعلى اقتداء بهذا الإمام العظيم الحسن بن علي عليه السلام في حسن أخلاقه، وجميل أفعاله، وشدة تواضعه، فالتواضع سمة من سمات الأنبياء والأئمة، فلنتخلق بأخلاقهم، ونتواضع لله تعالى من دون تكلف أو تصنع، فلا شيء كالتواضع يجعل الإنسان محبوباً عند الله وعند الناس، ولا شيء كالتكبر يجعل الإنسان مبغوضاً عند الله وعند الناس.